أَسبَابُ الانحِرَافِ عَن سَبِيلِ السَّلَفِ

وَبَيَانُ ذَلِكَ: بِأَنْ يُعْلَمَ أَنَّ طُرُقَ الزَّيْغِ عَنْ سَبِيلِ السَّلَفِ فِي الاعْتِقَادَاتِ وَالعِبَادَاتِ وَالمُعَامَلَاتِ إِنَّمَا تَنْتَهِي إِلَىٰ أَحَدِ سَبِيلَيْنِ، كَمَا بَيَّنَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ شَيْخُ الإِسْلَامِ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ-.

وَهَذَانِ السَّبِيلَانِ هُمَا جِمَاعُ سُبُلِ الضَّلَالِ، وَإِلَيْهِمَا تَرْجِعُ مَسَالِكُ الابْتِدَاعِ، وَطَرَائِقُ الانْحِلَالِ عَنْ طَرِيقِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ وَصَحْبِهِ -رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ-.

أَحَدُ هَذَيْنِ السَّبِيلَيْنِ: هُوَ طَرِيقُ المُتَكَلِّمِينَ مِنْ أَنْصَارِ العَقْلِ.

وَأَمَّا الثَّانِي: فَهُوَ طَرِيقُ المُتَصَوِّفَةِ أَرْبَابِ العَاطِفَةِ.

وَلِكُلٍّ مِنْ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ سِمَاتٌ وَخَصَائِصُ، تَرْجِعُ إِلَىٰ هَذَيْنِ الأَصْلَيْنِ: **العَقْلِ، وَالعَاطِفَةِ**.

فَأَمَّا المُتَكَلِّمُونَ: فَإِنَّهُمْ غَلَّبُوا العَقْلَ، وَسَارُوا وَرَاءَ مَا تَخَيَّلُوهُ.

وَأَمَّا المُتَصَوِّفَةُ: فَإِنَّهُمْ رَجَعُوا إِلَىٰ رِيَاضَاتِهِمْ، وَإِلَىٰ أَذْوَاقِهِمْ، وَمَوَاجِيدِهِمْ، وَعَوَاطِفِهِمْ.

فَالأَوَّلُونَ -أَعْنِي: المُتَكَلِّمِينَ- تُوحِي إِلَيْهِمْ عُقُولُهُمْ!!

وَأَمَّا الصُّوفِيَّةُ فَإِنَّهُمْ يَتَلَقُّونَ الوَحْيَ عَنْ قُلُوبِهِمْ!!، فَالوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنْتُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ، إِنَّمَا تَلَقَّيْتُمْ عِلْمَكُمْ مَيِّتًا عَنْ مَيِّتٍ، وَأَمَّا نَحْنُ فَتَلَقَّيْنَا العِلْمَ عَنِ الحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ؛ حَدَّثَنِي قَلْبِي عَنْ رَبِّي!!

فَالمُتَكَلِّمُونَ تُوحِي إِلَيْهِمْ عُقُولُهُمْ، وَأَمَّا الآخَرُونَ مِنَ المُتَصَوِّفَةِ فَإِنَّهُمْ يَتَلَقَّونَ الوَحْيَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ إِنَّمَا تَعْبَثُ بِهِم شَيَاطِينُهُم.

أَمَّا الوَحْيُ الَّذِي جَاءَ مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَنْزَلَهُ اللهُ -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- عَلَيْهِ فَلَا يَكَادُونَ يُقِيمُونَ لَهُ أُسًّا، وَلَا يَرْفَعُونَ لَهُ رَأْسًا.

قَالَ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ فِي «السِّيَر» (٤/ ٤٧٢): «إِذَا رَأَيتَ المُتَكَلِّمَ المُبتَدِعَ يَقُولُ: دَعْنَا مِنَ الكِتَابِ وَالأَحَادِيثِ الآحَادِ، وَهَاتِ «العَقْلَ»؛ فَاعْلَمْ أَنَّهُ أَبُو جَهلٍ، وَإِذَا رَأَيتَ السَّالِكَ التَّوحِيدِيَّ يَقُولُ: دَعْنَا مِنَ النَّقْلِ وَمِنَ العَقْلِ، وَهَاتِ الذَّوْقَ وَالوَجْدَ، فَاعلَمْ أَنَّهُ إِبلِيسُ قَد ظَهَرَ بِصُورَةِ بَشَرٍ، أَو قَد حَلَّ فِيهِ، فَإِنْ جَبُنْتَ مِنْهُ، فَاهْرُبْ، وَإِلَّا فَاصْرَعْهُ وَابرُكْ عَلَىٰ صَدْرِهِ، وَاقرَأْ عَلَيهِ آيَةَ الكُرْسِيِّ وَاخْنُقْهُ».

وَمِنْ سِمَاتِ المُتَكَلِّمِينَ: تَقْدِيمُهُمُ العَقْلَ عَلَىٰ النَّقْلِ، وَادِّعَاؤُهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ لَمْ يُبَيِّنْ أُصُولَ الدِّينِ الاعْتِقَادِيَّةَ بِأَدِلَّتِهَا العَقْلِيَّةِ، وَكَذَلِكَ القُرْآنُ، وَيَدَّعُونَ أَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَشْتَغِلُوا بِالكَلَامِ[1] لِانْشِغَالِهِمْ بِالفُتُوحِ أَوْ

(١) أَيْ: بِعِلْمِ الكَلَامِ الَّذِي بَحَثَ فِي العَقِيدَةِ بِطَرِيقَةٍ عَقْلِيَّةٍ مَحْضَةٍ، بل بطريقةٍ جهليةٍ مَحْضَةٍ.

لِطَلَبِهِمُ السَّلَامَةَ، حَتَّىٰ إِنَّهُمْ ادَّعَوْا أَنَّ مَنْهَجَ السَّلَفِ أَسْلَمُ، وَأَمَّا مَنْهَجُ الخَلَفِ فَأَعْلَمُ وَأَحْكَمُ.

وَقَالُوا: إِنَّ الصَّحَابَةَ آثَرُوا السَّلَامَةَ، وَلَمْ يَدْخُلُوا فِي تِلْكَ المِضَائِقِ.

وَقَالُوا: إِنَّ الصَّحَابَةَ انْشَغَلُوا بِالفُتُوحِ عَنِ النَّظَرِ، وَعَنْ إِعْمَالِ العَقْلِ.

وَيَرَوْنَ أَنْفُسَهُمْ[1] أَهْلًا لِذَلِكَ، فَتَصَدَّوْا لِهَذَا العَمَلِ العَظِيمِ وَتَهَيَّئُوا لَهُ، وَأَحْكَمُوا هَذَا البَابَ الخَطِيرَ الَّذِي قَصَّرَ فِيهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ -بِزَعْمِهِمْ-، وَعَجَزَ السَّلَفُ جَمِيعًا -كَمَا يَدَّعُونَ- عَنْهُ!!

وَكُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا هُوَ مَبْنِيٌّ عَلَىٰ أُصُولِهِمُ العَقْلِيَّةِ الَّتِي ثَبَتَ بُطْلَانُهَا فِي نَفْسِهَا، فَكَيْفَ وَقَدْ عَارَضَتْ رَكَائِزَ الدِّينِ الَّذِي أَنْزَلَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ؟!!

وَهَؤُلَاءِ المُتَكَلِّمُونَ أَدَّتْ أُصُولُهُمْ إِلَىٰ ظُهُورِ المَقَالَاتِ الفَاسِدَةِ، وَبُرُوزِ المَذَاهِبِ المُنْحَرِفَةِ فِي العَقِيدَةِ: مِنْ مَقَالَاتِ الجَهْمِيَّةِ، إِلَىٰ مَقَالَاتِ المُعْتَزِلَةِ، إِلَىٰ مَقَالَاتِ المُرْجِئَةِ، إِلَىٰ مَقَالَاتِ الأَشَاعِرَةِ، إِلَىٰ مَقَالَاتِ غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ وَالانْحِرَافِ، وَكُلُّ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ قَدَّمُوا العَقْلَ عَلَىٰ النَّقْلِ، وَهَذَا مِنَ البَلَاءِ العَظِيمِ.

وَأَمَّا الفَرِيقُ الآخَرُ وَهُمُ الصُّوفِيَّةُ: فَأَهَمُّ سِمَاتِهِمْ: تَقْدِيمُ الذَّوْقِ عَلَىٰ الشَّرْعِ، وَالمَيْلُ إِلَىٰ العِبَادَةِ عَلَىٰ حِسَابِ العِلْمِ، وَإِيثَارُ طَرِيقِ الرِّيَاضَةِ وَالمُجَاهَدَةِ

(١) يَعْنِي: المُتَكَلِّمِينَ.

عَلَىٰ طَرِيقِ العِلْمِ وَالتَّعَلُّمِ.

وَإِذَا كَانَ المُتَكَلِّمُونَ قَدْ خَالَفُوا الكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَطَرِيقَ السَّلَفِ فِي نَزْعَتِهِمُ العَقْلِيَّةِ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ المُتَصَوِّفَةَ قَدْ سَارُوا فِي الطَّرِيقِ نَفْسِهِ، حَيْثُ إِنَّهُمْ عَبَدُوا اللهَ بِالأَذْوَاقِ وَالمَوَاجِيدِ، وَبِالتَّجَارِبِ وَالأَحْوَالِ، وَلَمْ يَجْتَهِدُوا فِي مَعْرِفَةِ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّ سَبِيلَ مَعْرِفَةِ حَالِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَطْلُبُوا العِلْمَ، وَأَنْ يَعْرِفُوا السُّنَّةَ، وَهُمْ قَدْ أَعْرَضُوا عَنْ طَرِيقِ العِلْمِ أَصْلًا، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَيْهِ، وَجَعَلُوا رِيَاضَاتِهِمْ أَسَاسَ طَرِيقِهِمْ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ الشَّرِيعَةِ وَالحَقِيقَةِ كَمَا يَدَّعُونَ، وَبَيْنَ العِلْمِ وَالعَمَلِ، وَجَعَلُوا أَنْفُسَهُمْ فَائِزَةً بِالحَقِيقَةِ وَالعَمَلِ، وَجَعَلُوا لِغَيْرِهِمُ الشَّرِيعَةَ وَالعِلْمَ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ أُصُولِ ضَلَالِهِمْ وَزَيْغِهِمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ أَعْظَمَهَا عَلَىٰ الإِطْلَاقِ.

إِذْ إِنَّهُمْ لِجَهْلِهِمْ كَثُرَ ابْتِدَاعُهُمْ وَغُلُوُّهُمْ فِي شُيُوخِهِمْ، وَوُقُوعُهُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَالشِّرْكِيَّاتِ، وَبَلَغَ الغُلُوُّ بِطَوَائِفَ مِنْهُمْ إِلَىٰ ظُهُورِ فِرَقٍ ضَالَّةٍ -كَتِلْكَ الَّتِي ظَهَرَتْ بَيْنَ المُتَكَلِّمِينَ- مِثْل: الحُلُولِيَّةِ، وَالاتِّحَادِيَّةِ، وَالإِبَاحِيَّةِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الفِرَقِ المُنْحَرِفَةِ.

وَهَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ نَقِيضَانِ عَلَىٰ طَرَفَيْنِ، وَقَدْ تَطَرَّفَ هَؤُلَاءِ، وَتَطَرَّفَ هَؤُلَاءِ، وَأَمَّا أَتْبَاعُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَدْ تَوَسَّطُوا، وَسَارُوا خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «انقَسَمَتِ الأُمَّةُ إِلَىٰ ثَلَاثِ فِرَقٍ:

فَالْجَامِعُونَ حَقَّقُوا الْقَوْلَ التَّصدِيقِيَّ وَالْعَمَلَ الْإِرَادِيَّ.

وَفَرِيقَانِ فَقَدُوا أَحَدَ الْمَعْنَيَيْنِ:

فَالكَلَامِيُّونَ: غَالِبُ نَظَرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ فِي الثُّبُوتِ وَالِانْتِفَاءِ، وَالْوُجُودِ وَالْعَدَمِ، وَالْقَضَايَا التَّصدِيقِيَّةِ؛ فَغَايَتُهُمْ مُجَرَّدُ التَّصْدِيقِ وَالْعِلْمِ وَالْخَبَرِ.

وَالصُّوفِيُّونَ: غَالِبُ طَلَبِهِمْ وَعَمَلِهِمْ فِي الْمَحَبَّةِ وَالْبِغْضَةِ وَالْإِرَادَةِ وَالْكَرَاهَةِ وَالْحَرَكَاتِ الْعَمَلِيَّةِ؛ فَغَايَتُهُمْ الْمَحَبَّةُ وَالِانْقِيَادُ وَالْعَمَلُ وَالْإِرَادَةُ.

وَأَمَّا أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ: فَجَامِعُونَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ؛ بَيْنَ التَّصْدِيقِ الْعَمَلِيِّ وَالْعَمَلِ الحُبِّيِّ.

ثُمَّ إِنَّ تَصْدِيقَهُمْ عَنْ عِلْمٍ، وَعَمَلَهُمْ وَحُبَّهُمْ عَنْ عِلْمٍ؛ فَسَلِمُوا مَنْ آفَتَيْ مُنْحَرِفَةِ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ، وَحَصَّلُوا مَا فَاتَ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مِنَ النَّقْصِ؛ فَإِنَّ كُلًّا مِنَ الْمُنْحَرِفِينَ لَهُ مَفْسَدَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: الْقَوْلُ بِلَا عِلْمٍ -إِنْ كَانَ مُتَكَلِّمًا-، وَالْعَمَلُ بِلَا عِلْمٍ -إِنْ كَانَ مُتَصَوِّفًا- وَهُوَ مَا وَقَعَ مِنَ الْبِدَعِ الْكَلَامِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ الْمُخَالِفَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

وَالثَّانِيَةُ: فَوَّتَ الْمُتَكَلِّمُ الْعَمَلَ، وَفَوَّتَ الْمُتَصَوِّفُ الْقَوْلَ وَالْكَلَامَ.

وَأَهْلُ السُّنَّةِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ: كَانَ كَلَامُهُمْ وَعَمَلُهُمْ بَاطِنًا وَظَاهِرًا بِعِلْمٍ، وَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ قَوْلِهِمْ وَعَمَلِهِمْ مَقْرُونًا بِالْآخَرِ.

وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُسْلِمُونَ حَقًّا، الْبَاقُونَ عَلَىٰ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ؛ صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

فَإِنَّ مُنْحَرِفَةَ أَهْلِ الْكَلَامِ فِيهِمْ شَبَهُ الْيَهُودِ، وَمُنْحَرِفَةَ أَهْلِ التَّصَوُّفِ فِيهِمْ شَبَهُ النَّصَارَىٰ؛ وَلِهَذَا غَلَبَ عَلَىٰ الْأَوَّلِينَ جَانِبُ الْحُرُوفِ وَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالِاعْتِقَادِ، وَعَلَىٰ الْآخَرِينَ جَانِبُ الْأَصْوَاتِ وَمَا يُثِيرُهُ مِنْ الْوَجْدِ وَالْحَرَكَةِ.

وَمِنْ تَمَامِ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ أَمَرَ نَبِيَّهُ أَنْ يَدْعُوَ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَيُجَادِلَهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ.

وَهَذِهِ الطُّرُقُ الثَّلَاثَةُ: هِيَ النَّافِعَةُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٣١).